عبد الجبار عباس

« كرنك » نجيب محفوظ : رواية هابطة ...

(الكرنك) رواية نجيب محفوظ الاخيرة هي الخطوة الثانية في الانعطافة السلبية الغريبة التي بدأت برواية (حب تحت المطر) ... فبعد شوامخه الواقعية التأريخية الباقية ، وبعد عطائه المجدد ابان المرحلة الفلسفية السيكلوجية ، تأتي الروايتان الاخيرتان نقطة هبوط مفاجيء في الخط البياني لرحلة نجيب محفوظ الروائية ، حتى لتعجب كيف ارتضى الكاتب الدؤوب الخبير بوضع الحقيقة الشاملة المستفيضة في بناء يوازيها دقة وعمقا وضخامة ، ان ينقلب العمل الروائي لديه الى لعبة صغيرة جاهزة ومكررة ، سلسلة مجازات معادة يتراجع فيها الابداع ازاء الحرفة التي لم تعد متخفية متكتمة ، بل ولم تعد تثمر بناء متماسكا منضبطا ينطابق مع الموضوع تطابقا لا ثغرة تفسده ، ولا حواشي تثقل اطرافه المتراخية الباردة .

حقا انه ما زال على طريق الغرض الكبير ذاته : ان يواكب حركة الواقع ويلم بابعاده في صورته الشاملة ومساره التأريخي ، لكن هذه المحاولة لم تعد تتحقق الا في انجاز روائي باهت وصغير لا يرقى الى مستوى الغرض ذاته ، ويعجز بالتالي عن أن يكون شهادة عميقة وصحيحة عن الواقع ... فنجيب محفوظ في (الكرنك) يختار المقهى، بدلا من البنسيون او العوامة ، مسرحا يجمع بين عدد من الشخصيات الممثلة للاجيال والطبقات المصرية ويقيم بينها سلسلة من العلاقات العضوية والمفتعلة لتكشف عن رؤية المؤلف لمسار الحياة العامة خلال العقدين الماضيين من تأريخ مصر الحديث ، وهي رؤية تتذبذب بين الولاء لهذه الفترة والاعجاب بابرز مزاياها التاريخية ، وبين فضح لما رافقها من اخطاء ومثالب تضافرت على اطفاء جذوة الامل والايمان الثوري في صدور الشباب الوطنيين الذين يمثلهم في الرواية اسماعيل وزينب وصديقهما حلمي حماده ، فقد عانوا من الفترة التي آمنوا بها وارخوا ميلادهم بميلادها مظالم غير مبررة ولا معقولة فسجنوا وعذبوا واستخدمتهم اجهزة القمع والتسلط مخالب ذليلة في قبضتها العاتية، فساد الايمان الحقيقي بقوة التسلط والخوف الذي يستهلك الروح والشعور بالسقوط المفضي الى الاستهتار بكل شيء .

ان توزع المؤلف بين الاعجاب والفضح ، بين الاعتراف بما حققته فترة ما قبل حزيران من انجازات حضارية متقدمة ، ولمس ما انطوت عليه تلك الفترة من امتدادات التراث الوحشي المتحدر من عهود الطغيان الاسود هو عنوان الرواية ومحورها : (وترددت طويلا بين انبهاري بالعظمة ومقتي للفزع والارهاب . ص ٣٤) ، لكنه بدلا من أن يكون اساسا للعمل ، او بذرة للموضوع الخصب ، او مسارا دراميا لحركته الداخلية ، فقد بقي مجموعة ملاحظات متناقضة تتناثر هنا وهناك بعد كل مرحلة من مراحل الحدث ، او تعليقات خاطفة اقرب الى الهوامش والاستنتاجات العابرة ، ذلك ان الحدث في الرواية لا يمت بأدنى صلة الى (العظمة في تولدها وامتدادها) والتي يدعونا المؤلف الى ان نتذكرها اذا ما تذكرنا الحياة الزاخرة بالآلام والسلبيات ، فهو مثال على تسلط وامتداد الجاهلية المرذولة الغامضة وقد تضاعف جبروتها، (فلم يخل احد من رواسب الذل والهزيمة والخذلان . ص ١١) .. وما عاناه بطلا الرواية جزء من (الحقائق المرعبة) تبوح بها القلوب المغلقة المنكسرة للمؤلف ، الشاهد ، الراوي ، الذي يجهد ان يقيم توازنا مفتعلا بينها وبين ما يتطلبه (انشاء دولتنا العلمية الاشتراكية الصناعية التي تملك اكبر قوة في الشرق الاوسط) من آلام ينبغي تحملها ، فهي (ليست الا النفايات الضرورية التي يلفظها البناء الضخم في شموخه .) . ان الرواية تفتح امام القارىء ثغرة اساسية لا تفتحها الاعمال الكبيرة الناضجة ، فهي بدلا من ان تطرح الحقيقة الشاملة في اتساعها وتعقدها وقوة الصدق فيها ، تمسي مجالا لآراء وتقييمات شخصية يمكن مناقشتها او رفضها لما تنطوي عليه من تناقض لم يبذل الكاتب جهدا لاستثماره كمادة دراميه خام يمكن ان تضاعف ثراء العمل، بل ظل ثمرة الترجح بين طابع الشهادة المفتنية بالحقيقه ، والنزوع الى التبرير الذي يفسد هذه الحقيقه حين يلتمس للطغيان عذرا ، وللقتلة فكرا ، وحين يقيم مقاربات تأريخية غير واردة : (هل عرفنا ما كان يعانيه سكان الحارة في القاهرة عندما كان صلاح الدين يحقق انتصاره الحاسم على الصليبيين ؟ هل تخيلنا آلام اهل القرى المصريه عندما كان محمد علي يكوّن امبراطوريه مصرية ؟ هل تصورنا عصر النبوة في حياته اليومية والدعوة الجديدة تفرق بين الاب وابنه والاخ واخيه ، تمزق العلاقات الحميمة وتحل العذاب مكان التقاليد الراسخة، وبالمثل الا يستحق انشاء دولتنا العلمية الاشتراكيه الصناعيه التي تملك اكبر قوة في الشرق الاوسط ، الا تستحق ان نتحمل في سبيلها تلك الآلام ؟ وكنت اشعر طيلة الوقت بانه يمكن ان اقنع نفسي بضرورة الموت وفائدته بمثل هذا المنطق . ص ٢٠) .. فمن حق القارىء ازاء اسئلة كهذه ان يشير الى التباين الجوهري بين عهد النبوة او عهد الانشاء الحقيقي للبناء العلمي الاشتراكي ، وبين مصر الخمسينات والستينات ، ذلك التباين الذي تكتسب به التضحيات والآلام معنى ودورا تارة ، أو تمسي مجرد علامة ادانة واتهام لزمن (القوى المجهولة وجواسيس الهواء واشباح النهار ــ ص ٢٢) تارة اخرى ... من حق القارىء ان يقول : لا شيء يبرر قتل الانسان في ابناء الثورة وجنودها فلا يعود الواحد منهم سوى مخبر ذي (مرتب ثابت وضمير معذب ص ٦٣) ، ولا يملك اذ تنكر طعنات البطش (اي تساؤلات ولا عنفا في ردود الافعال ، كالعادة ــ نفس الاسباب ــ نفس النتائج ــ لا جدوى من التفكير . ص ٣٦) . والرواية بمنطقها الفني مكرسة دون ريب لادانة هذا المسلك الدموي اللامبرر ، لكن المؤلف بمنطقه الفكري الخاص ، وبسبب توزعه بين الادانة والتبرير ، يعد آثار ذلك المسلك (نفايات ضرورية يلفظها البناء الضخم في شموخه ــ ص ٢٠) ، لذا تأخذه الحيرة بشأن وطنه ، فهو (رغم انحرافاته يتضخم ويتعظم ويتعملق ، يملك القوة والنفوذ ، يصنع الاشياء من الابرة حتى الصاروخ ، يبشر باتجاه انساني عظيم ، ولكن ما بال الانسان فيه قد تضاءل وتهافت حتى صار في تفاهة بعوضة ، ما باله يمضي بلا حقوق ولا كرامة ولا حماية ، ما باله ينهكه الجبن والنفاق والخواء . ص ٢٨)، ولئن كان جواب هذا السؤال لدى الكاتب هو ان هذا التضاؤل جزء من آلام التحول ، وتلك التفاهة جزء من ثمن النصر ! فانه حين يلتفت الى آراء شخصياته فانها تهمس بالحقيقة الاصدق والملاحظة الاكثر صوابا وشرعية : (يقولون اننا نعيش ثورة يستوجب مسارها تلك الاستثناءات ، وانه لا بد من التضحية بالحرية والقانون ولو الى حين ، ولكن مضى على الثورة ثلاثة عشر عاما او يزيد ، فآن لها ان تستقر على نظام ثابت . ص ١٩) .. الم يكن هذا المطلب العادل ، هذا الطرح الصحيح للقضية ، جديرا بان يحمل المؤلف على تنقية روايته من التماس المبررات المفتعلة لما يعده استثناءات او اخطاء في مسيرة ايجابية صاعدة ، وما قد يحق للقارىء ان يعده الثمرة الطبيعية لجوهر المرحلة ذاتها .. فالقتلة في (الكرنك) ليسوا بناة تحول عظيم اخطأوا في غمار العمل ومصاعبه خطأ هينا فداسوا هذه الضحية او تلك عبورا الى تحقيق هدف جليل يمكن ان تتضاءل بعد بلوغه الاخطاء او حتى تغتفر ، اذا ما قورنت بضخامة الانجاز الحضاري الجديد، لكنهم صنائع العرش والاقطاع يواصلون (نشوة تقليد الآلهة) لصالح اقطاع الطبقة الجديدة :

(نحن في زمن القوى المجهولة وجواسيس الهواء واشباح النهار،

وجعلت أتخيل وأتذكر ، تذكرت ملاعب الرومان ومحاكم التفتيش وجنون الاباطرة ، تذكرت سير المجرمين وملاحم العذاب وبراكين القلوب السود ومعارك الغابات ... وعندما يلفنا الظلام أو تسكرنا القوة أو تطربنـا نشوة تقليد الآلهة فانه يستيقظ في اعماقنا تراث وحشي ويبعث فينا العصور البائدة .. وظلت معلوماتي ترتكز على الخيال حتى أتيح لي بعد ذلك بسنوات أن تفتح لي القلوب المغلقة في ظروف جد مختلفـه وتمدني بالحقائق المرعبة وتفسر لي ما غمض علي فهمه مـن الاحداث في ابان وقوعها ص ٢٢) .

تلك واحدة من ملاحظات عابرة ، او اشارات طارئة ، لو كـان الكاتب سعى الى ان تكون مركز العمل ينهض البناء على اساس منها ، وتتردد اصداؤها في اطرافه ، لكانت (الكرنك) مما يستحق المقارنـة مع روائع نجيب السابقة ، والانتساب الى تاريخه الروائي الحافل ... فما فعله نجيب محفوظ انه اختار من هذه (الحقائق المرعبة) مثلا : معاناة ونهاية عاشقين آمنا بالثورة ، فكانا ــ دون سبب او عـزاء ــ ضحيتين لبطش لا مبرر له فتك بهما حتى (تسلل مـرض مجهول الى روحيهما فباتا غريبين او كالغريبين ، حتى بت اعتقد أنهما واريا حبهما القديم التراب ، وان كليهما قد استقل بحياته واحزانه . ص ٤٢) ، ثم احاط هذا المثال بمجموعة آراء متناقضة ، تدين الجريمة تـارة ، وتعدها امرا طبيعيا او ضروريا في مراحل التحول الحضاري ، تـارة اخرى .

ان قصتي اسماعيل وزينب بين الفقر والحب والسجن والخيبة خطان متشابهان يضمان في سابكهما وعلاقتهما بنهاية حلمي حمادة قصه قصيرة مستقلة شبه معزولة عما حولها من شخصيات واجواء يمكن ان تكون ديكورا : قصة الحلم الكبير والامتحان الصعب والنهاية الاليمـة التي جاءت مع هزيمة حزيران .. وحتى علاقتهما بصديقهما حلمي حمادة ممثل اليسار في الرواية لم تلتحم في بناء روائي عضوي ، لان حلمي حماده كان له قصته القصيرة المستقلة مع الشخصية ــ الرمز: العجوز قرنفلة ، الراقصة القديمة وصاحبة المقهى تنطوي شخصيتها في الروايه على ايحاءات رمزية بمصر ذاتها ، فمنذ ان استهوى الكاتب ان يلتفت النقد الى الشبه العفوي بين مصر الحرب وحميدة بطلة (زقاق المدق) في ضياعها وآمالها وسقوطها ، وهو يكرر هذه اللعبة الروائية المـرة بعد الاخرى : زهرة في (ميرامار) ، عليات في (حب تحت المطر) ، سمارة في (ثرثرة فوق النيل) . ان الهوية البسيكلوجية لقرنفلـة تتكفل ، منذ الضربات الاولى ، بفضح الوظيفة الرمزية لها : (انطفـأ سحر الانوثة ، وجف رونق الشباب ، ولكن حلت محلهما روعة غامضة واسى مؤثر . ما زالت نحيلة رشيقة يوحي عمودها بالنشاط والحيوية، وثمة قوة مهذبة مكتسبة من التجربة والعمل ، اما خفة روحها فـآسرة نافذة . ص ٤) ، ويحقق الكاتب عن طريق علاقتها بحلمي حمـادة : حبها له ، واعجابها به ، وقلقها عليه ، رؤيته السياسيه المتكررة : ان الخلاص والكرامة في انفتاح مصر على اليسار الذي يتحمل احيـانا مسؤولية ابتعاده عن مصر التي تعشقه .. ومصر ليست (قرنفلة) فقط، بل هي (زينب) ايضا ، فلا بد اذن ان يميل قلب هذا الفتى الرشيق الوسيم الشجاع الثائر على التقاليد ، الى زينب ايضا : (ولم تكن جاذبية قرنفلة موضع شك عندي ، فقد وقعت انا نفسي في اسارها ، ولكن هل يكفي ذلك لاعدل عن ظني القوي فيما يتعلق بحب حلمي حمادة لزينب ــ ص ٤٩) .

ان معاناة زينب تكرار شبه ميكانيكي لمعاناة حبيبها اسماعيل، وان اختلفت بعض التفاصيل ، فهما ابنان نموذجيان للبرجوازية الصغيرة : معاناتها ، ضعفها ، احلامها ، سقوطها .. وعلاقتها بالشخصيات الاخرى تكرار حرفي لما قدمه نجيب محفوظ في (زقاق المدق) و (ميرامار) مغزى ودلالة .. فالجميع يطمعون بها ، وعلاقة الاخرين بها مرآة تكشف جوهر اولئك الاخرين ... هكذا يشاركها اسماعيل حياتها الفقـيرة المحبطة ، ويخفق لها قلب حلمي حمادة ، ويطمع بها بعد سقوطها عـم حسب الله عشيقة لا زوجة ، وزين العابدين عبدالله (مسرة يتسلى بها) .. تلك هي الاداة الجاهزة المكررة الاخرى ، فاقتران الفساد السياسي بالسقوط الاخلاقي (تيمة) اساسية طالما تكررت في روايات نجيب السابقة منذ (القاهرة الجديدة) وتفرعت عنها مواقف وتصرفات شخصياته الروائية ، هكذا يكون سقوط زينب واحتراف امام الفوال الجرسون وجمعه مساح الاحذية ، القوادة بلا حياء ، تعبيرا عـن الانحراف السائد ونتائج طبيعية له .

ليست (الكرنك) سوى مجموعة شخصيات او نماذج تقدم عـبر مجموعة حيل روائية مكررة : تلك طريقة كتاب الدرجة الثانية المحترفين: عبد القدوس ، السحار ، السباعي ، ومن يشابههم في القصة العربية: يجمع الواحد منهم خلال عمله الصحفي او الوظيفي (عينات) مختـارة أو طريفة او نموذجية او ممثلة لقطاعات اجتماعية ، ثم يعمد الى الجمع بينها في عقدة او حدث أو سلسلة علاقات تتنامى تارة في مسار درامي او تنحرف الى تلفيق ميكانيكي اخرى ، ويبذر المؤلف خلال ذلك بضع معان أو آراء أو افكار مدخرة . و (الكرنك) بين هذا اللون من الكتابة الروائية اقرب الى مجموعة تخطيطات صحفية حملها الكاتب حملا على ان تجتمع في كتاب واحد .

يختلف الفصل الاول المعنون (قرنفلة) عن الفصول الثلاثة اللاحقة المعنونة باسماء ابرز الشخصيات : اسماعيل الشيخ ، زينب ديـاب ، وخالد صفوان ، في انه يبدأ بالحديث عن ماضي قرنفلة ، ثم يصبـح ترقبه لحفيده في المقهى [illegible] قرنفلة واحده من المجموعة ، ويمسي تناول الكاتب اقرب الى السرد المقتصد المألوف .. اما الفصلان الثاني والثالث ، فمعالجة الكاتب فيهما اقرب الى الريبورتاج الصحفي : يتولى هو دور الصحفي الشاهد : يسأل ويعلق ويصف ... ويتولى اسماعيل وزينب رواية الاحداث بطريقة باهتة باردة متعبة لا فـرق فيها بـين اللحظات المشحونة المتفجرة والايقاع العادي للايام العادية .. وامـا الجزء الاخير الخاص بخالد صفوان ، والذي كان ظهوره مفاجئا ، فقد كان مزيجا من الوصف والاعتراف ، ويحكمه منطق فكري غريب لا حدود فيه بين الفهم والتبرير ، الاستغوار والاحتضان .. ها هو الجـلاد القاتل ليس فقط ضحية لاغراء الكرسي الذي يشع قوة غير محدودة، والذي افترس براءة القرية ووطنية المدينة ، فاحال الثائر في الظلام الى (جرثومة كامنة تدب فيها الحياة . ص ١٠١) ، بل هو مفكر واع ومسؤول يملك تفسيرا سياسيا شاملا للواقع ، ويقترح ــ على ضوء تجربته الخاصة الخصبة ــ مبادىء تعلمها في اعماق الجحيم ..

ولكن الباب المضيء لا يفتحه الجلاد صفوان ، بل تشير اليه دمية قصصية جديدة واخيرة : منير احمد ، ممثل الجيل الجديد ، جيل ما بعد النكسة : (ثمرة لم تكن متوقعة ، فمن ظلام شامل انبعث نور باهر كأنما تخلّق بقوة السحر . ص ١٠٦) .. فبسبب ان الروائي الكبير لا ينبغي ان يغلق مسالك الامل امام شعبه وشخصياته الروائية، فتكفر (بأول تجربة وطنية خالصة جاءت في ختام سلسلة من عصور الـذل والاستعباد ص ٣٨) فأي ضير في ان يحلم حلما جميلا لا نصيب فيـه للحقيقة الكالحة التي يغمض نجيب محفوظ ، اول مرة ، عينيه عنها ؟ أليس التطلع الى افق الخلاص حق للكاتب وواجب قومي عليه ؟ هكذا ينبثق من اعماق الجحيم (صراط متوازن بلا انانية من جهة ولا استغلال من الجهة الاخرى ليتحقق للحب النقاء والبراءة . ص ١٠٩) .. ويـا له من صراط يمده صنيعة وضع فيه نجيب حلمه ورؤيتـه السياسية ، فهو : (يحترم الدين واليسارية معا ، لا عودة للتراث ، ولا اتجاه نحو الحضارة الغربية ، بل أصالة تكمن في الذات ..) وبها سيحل يومـا محل حلمي حماده ويواصل طريقه ، فتحبه مصر : قرنفلة .

ذاك هو الخلاص البهيج يسوقه حلم مقحم ومفتعل يفضح حـيرة الكاتب وتعبه ، حيرة يشي بها السؤال : (لم ادر كيف يمكن ان يتطهر من الحشرات ذاك البناء الشامخ ــ ص ٣٤) ، وتعب يبوح بـه اعترافه بان (من العبث ان تحاول الوصول الى منطق ثابت من خلال عاصفة ــ ص ٨٨) .

بغداد